بسام الشكعة
رجل وشعب في مواجهة الاحتلال

(٥)

غرباء في فلسطين

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

ولد بسام الشكعة في نابلس عام ١٩٣٠ فهو إبن أحمد الشكعة . وكان والده تاجرًا ثريًا لديه مصنع للصابون ودار عرض سينما ومحطة بنزين .

كان بسام صغيرا بين أحد عشرة من الإخوة والأخوات . خمسة أشقاء ذكور وستة من الأخوات الإناث .

وقد تلقي تعليمه في نابلس وبعاطفة الحب القديمة التي كان يجيش بها تجاه وطنه فلسطين وتجاه أسرته . هذه العاطفة التي تتسم بها الشخصية الوطنية العربية الفلسطينية .

وكانت عائلة الشكعة تتسم بالترابط والمودة فيم بينها . وخصوصا عندما تم طردهم من الأماكن التي عاشوا بها في فلسطين إلى أماكن أخرى .

أحيانا كانت العائلة تقوم بزيارات إلى يافا أو إلى تل أبيب ، وخلال تلك الرحلات كانوا يلتقون باليهود العرب الذين يعيشون معهم على أرض فلسطين .

وكانوا يلقون معاملة من المسلمين والمسيحيين تتسم بروح المودة والإخاء .

وفي تلك الأيام الأولى من طفولته بدأ الصغير بسام يسمع كلمة مخيفة ومنفرة . هذه الكلمة هي الكلمة «الصهيونية» التي سرعان ما ارتبطت في ذهنه بأولئك اليهود القادمين من شرق أوربا والذين سرعان ما أنشأوا لهم مستوطنات وتعاملوا مع المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين بروح الكراهية والازدراء والاحتقار.

ولم يمضي وقت طويل حتى أدرك بسام أن القادمين الجدد يعتزمون انتزاع وطنه .

وبالنظر إلى تلك هذه الفترة نجد أنه من الغريب أن العالم أجمع ـ بدون أي تساؤل ـ تقبل فكرة الصهاينة التي ادعت أنه ليس في نيتهم أن تكون كل أرض فلسطين ضمن الدولة اليهودية مع ذلك فقد تقبل العالم ـ بلا أي تساؤلات كل الأفكار والتصريحات الصهيونية اللامنطقية والمتناقضة والكاذبة التي أدعت أن

الفلسطينيين حرموا أنفسهم من البقاء في الدولة برفضهم تقسيم وطنهم مع تسليم الجزء الأكبر والأكثر خصوبة للأقلية من جماعات المستوطنين الأجانب .

وخلال دراساته ومطالعاته أدرك بسام أنه لم يكن هناك حالة شبيهة أو مماثلة في التاريخ الإنساني أو في الأعراف والقوانين الدولية لحالة الشعب الفلسطيني الذى طرد من أرضه .

وحين يتذكر ذلك فإنه يقول : أن الغرب كان سعيدا بما جرى فقد تمت عمليات غسيل مخ له .. فالصهاينة الذين كانوا من أصول أوربية أو أمريكية في أغلبهم . وكانت لهم خطط تتسم بالغش والخداع والوقاحة وغالية التكلفة . وفي مواجهة ذلك كله ضاعت أصوات الفلسطينيين المطرودين من أرضهم .

لقد ذهبت أدراج الرياح . وبمرور الزمن صار النضال الفلسطيني معركة من أجل البقاء أكثر مما هو لتأكيد حقوقهم القديمة .

«لقد كنا هناك على أرض فلسطين » . هكذا يقول بسام الشكعة .

لقد كنا نؤكد للعالم أننا لسنا فقط شعبًا عاش على هذه الأرض ولكن كنا موجودين عليها من قديم الأزل ولذا كان علينا أن نناضل في سبيل حقوقنا التي لا تقبل التنازل .

ولأن الصهاينة اليهود كانوا يعتقدون أنهم دائما الشعب المختار والأقوم أخلاقًا فإنهم لم يكونوا أبدا يقدمون تنازلات ويقبلون بفكرة أنهم على خطأ .

وهذا الموقف ـ كما يقول الشكعة ـ خلق مواقف أكثر تعقيدًا إذ أنك لكي تجعل الناس يصدقون الأكاذيب إلى الأبد لابد أن تحجب عنهم الحقيقية من جميع الاتجاهات وأن تسد جميع القنوات الفرعية التي تصب في النهر الرئيسي .. ولكن بينما أنت تسد هذه القنوات فإذا بتسرب يحدث من إحداها .

وبسبب الشجاعة الفائقة لبسام الشكعة ـ هذا الرجل المتواضع ـ تم الكشف عن الكثير من الحقائق البغيضة للاحتلال الصهيوني داخل الأرض المحتلة . هذه الحقائق أوضحت مدى الزيف والخداع اللذان يتعرض لهما العالم من الصهاينة حتى الآن .

وباسترجاع تلك الأيام البعيدة والعودة إلى مجريات الأحداث خلالها سوف يكون من الواضح لأي واحد يتوق إلى إدراك الحقيقة أن هناك خططا غريبة تم تدبيرها للشعب الفلسطيني .

فقد استبعدت قوى الغرب شكوك ومخاوف الفلسطينيين في مواجهة القرار الذي تم تبنيه في مؤتمر بلتيمور الصهيوني سنة ١٩٤٢ الذى دعا إلى إقامة دولة يهودية على كل أرض فلسطين وأعلن أن الأقلية اليهودية سوف تكفل نفس الحقوق التي تتمتع بها الأقلية اليهودية للأغلبية من الفلسطينيين العرب .

وفي مؤتمر مدينه أتلانتا الذى عقد سنة ١٩٤٤ أعلن الصهاينة لكل العالم أنهم لا يطالبون فقط بإقامة الدولة اليهودية على كل أرض فلسطين غير مقسمة وغير منقوصة . وطبقا لما قاله الكاتب اليهودي الدكتور : حنا أرنوت في كتابه « إعادة الاعتبار للصهيونية »ـ «طبعة مكميلان » : في ذلك الوقت لم يذكر أي شيء عن العرب الفلسطينيين في مشروع القرار ولكن ترك لهم الخيار إما الهجرة من الأرض إلى خارج فلسطين أو قبول الإقامة بشرط أن يعيشوا كمواطنين من الدرجة الثانية .

وعندما بلغ بسام الشكعة سن الرجولة تزايد لديه الإدراك بما يهدف إليه الصهاينة للأراضي الفلسطينية وسكانها العرب . هذه الأهداف التي استخدم الصهاينة أفظع وأبشع الوسائل لتحقيقها معتبرين أن العالم سوف يجد التبرير الأخلاقي لما يفعلون باعتبار أنهم أصحاب قضية عادلة .

وهكذا كان للسيدة جولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيلية أن تعلن أنه ليس هناك ما يسمى «الشعب الفلسطيني» إنهم لا وجود لهم .

أيضا من البداية كانت الكتب والصحف والمطبوعات والنشرات الصهيونية حين تتحدث عن السكان على أرض فلسطين تعنى بهم اليهود .

وكانت هناك عدد من الإدارات الخاصة التي شكلها اليهود لتتعامل مع الشئون العربية الفلسطينية لمن ولدوا على هذه الأرض وعاش عليها أسلافهم لأجيال طويلة وتصفهم باسم : الأجانب أو الغرباء .

ورغم أن الأغلبية من الأوربيين المساندين والمؤيدين للصهيونية قبلوا بلا تفكير أو تساؤل هذه المواقف التي أعلنها الصهاينة . فإن بسام الشكعة ورفاقه من الفلسطينيين كانوا يعلمون السبب وهو أن الصهانية لو اعترفوا بالوجود الفلسطيني على الأرض لكان هذا سندا قويا في مطالبتهم التي لا ينكرها أحد عن تقرير المصير وبالتالي سيدرك العالم أن الصهاينة اغتصبوا منهم هذا الحق .

يوضح الشكعة : لقد كان ينبغي أن ندافع عن حقنا من البداية ولقد أساءوا تقديرنا . لم يبذلوا أبدا أي محاولة لفهمنا ربما لأنهم لم يعطوا الأمر أي أهمية . ولكنهم يدركون مدى الخطأ الذى ارتكبوه وكانوا دوما يتوجهون باللوم لكل من يشير - محرضًا - بطرف خفي إلى المقاومة الفلسطينية .

وحين كانت تواجههم تحديات المعارضة كانوا يقولون للعمد الفلسطينيين : « أنتم الذين تجعلون الناس يسلكون هكذا.. » .. ويرفضون أن يتفهموا حقيقة أنهم في مواجهة مع الشعب الفلسطيني وهو ببساطة شعب قادر على التفكير ، وقادر على حكم نفسه ، ولكن الصهاينة غير قادرين أبدا على إدراك هذه الحقيقة البسيطة .

ربما يحدث ذلك لأن الصهاينة اعتبروا أنفسهم يمثلون كل يهود العالم ، وإن كانوا

في الحقيقة لا يمثلون سوى أنفسهم ، وبسبب إخفاقهم في التبرؤ من الأفكار الصهيونية فإن أغلب اليهود يبدون ـ لأهداف تكتيكية ـ متقبلين للادعاءات الصهيونية .

وحين يتحدث بسام الشكعة عن اليهود الذين يرفضون الصهيونية فإن حديثه يتسم بالدفء وبالعرفان .

مأساة الشعب العربي الفلسطيني وإلى حد ما أيضا يهود إسرائيل ـ ترجع إلى تجاهل ما جاء به الأنبياء اليهود الحقيقيون .

أحد هؤلاء الأنبياء هو آشر جيز برح الذى تخفى باسم مستعار : آحادها آم (واحد من الناس) محذرًا اليهود الصهاينة من الأخطار التي تترتب على تصرفاتهم .. فقد كتب عام ١٨٩١ عن المستوطنين اليهود في فلسطين : لقد كانوا عبيدا في الشتات وفجأة وجدوا أنفسهم يتمتعون بحرية عير محدودة وهذا التغيير أيقظ بداخلهم الميل إلى الطغيان .

أنهم يتعاملون مع العرب بروح العداء والقسوة ويحرمونهم من حقوقهم ويفخرون بهذه الأعمال بينما لا أحد من بيننا بواجه هذه الميول الخسيسة والخطيرة .

ويبدى الكاتب أسفه لأن اليهود الشرقيين رفضوا أن يتعلموا لغة العرب الفلسطينيين وأن يتفهموا عاداتهم ، ويشير إلى حقيقة أن الصهاينة كانوا يصفون العرب بأنهم متوحشون لا يدركون ما يجرى حولهم .

يضيف : مع هذا فهذه غلطة كبيرة لأن العرب فهموا ما يجرى حولهم ولكن لم يدركوا الخطر الماثل على مستقبلهم من جراء الأنشطة الصهيونية ولهذا لم يظهروا أي احتجاج ضد هذه الأنشطة .

عام ١٩١١ كتب : « بالنسبة للحرب ضد اليهود فقد كنت شاهدًا عن بُعد بقلب

مليء بالألم وخصوصًا بسبب الحاجة إلى نفاذ البصيرة والفهم من جانبنا إلى أقص حد . في واقع الأمر لقد كان الدليل واضحًا قبل عشرين عامًا مضت أنه سيأتي اليوم الذي يقف فيه العرب ضدنا ».

من المدهش حقا أن نذكر أنه لو كان هذا الكاتب اليهودي «آحادها أم» على قيد الحياة الآن ماذا كان سيكون موقفه بالنسبة للموقف الراهن اليوم ؟؟!

وبالعودة إلى الماضي يقول السيد بسام الشكعة : لقد أدركت حين كنت صغيرا جدا كيف جرى التخطيط للمسألة الفلسطينية . الشعب والناس البسطاء لم يكونوا يضعون في حسبانهم أكان هناك شيء يمكن عمله لمنع وقوع الكارثة ؟

أنا لا أعتقد ذلك أن العالم بأسره لم يكن يتجاهل فقط ما يجرى ضدنا ولكن أيضا كان يساند ويقف بإيجابيه مع الصهاينة .

رغم أنه كانت هناك محاولات كثيرة لطمس الحقائق وجعلها غامضة حول قضية أمل الفلسطينيين ، لكن الأمر الذي لا يحتاج إلى أي مناقشة هو أنهم هم السكان الأوائل الذين عاشوا على الأرض الفلسطينية قبل ١٣٠٠ عام . وكما يقول مكسيم رودنسون في كتابه «إسرائيل والعرب» « طبعة بنجوين : الاثنان عاشا معًا وصار شعبًا واحدًا .

ويصرف النظر عن الحقيقة التي تؤكد أنه عند هجرة يهود شرق أوربا إلى فلسطين كان ٩٢٪ من سكانها من العرب . فإن اليهود لم يكن لهم الحق مطلقا في الادعاء السخيف بالبقاء في هذه الأرض لمجرد أنهم في الماضي ألفي عام أقاموا ولفترة قصيرة مملكة يهودية وبالنسبة لوعد بلفور فإن بريطانيا لم يكن لها الحق أن تتخذ قرارًا بشأن فلسطين دون استشارة الأغلبية من أهلها ووهم العرب .

هذا بالإضافة إلى الفكرة الزائفة القائلة بأن الفلسطينيين فقدوا حقهم في المواطنة

على أرضهم لمجرد أنهم عارضوا قرار التقسيم الشبع وغير العادل .

أيضا لقد كان هناك ادعاء زائف بأن الفلسطينيين الذين تم طردهم من أرضهم ليس لهم الحق في العودة إلى هذه الأرض لأنهم رحلوا عنها بمحض رغبتهم بناء على تعليمات وأوامر صدرت إليهم من الزعماء العرب .

« وحتى لو كانوا قد رحلوا عن أرضهم بمحض رغبتهم فليس هناك قانون يقضي بأن من يرحل من أرضه يحرم من حق العودة إليها » ومن ناحية أخرى كان الصهاينة يطالبون اليهود في كل أنحاء العالم بالهجرة إلى إسرائيل في نفس الوقت الذى يستخدمون فيه كل الحجج والذرائع الواهية لرفض عودة الفلسطينيين المطرودين من أرضهم .

وحين يرى بسام الشكعة ما حدث لشعبة فإنه يشعر أن رد الفعل لدى الغرب كان محبطًا .

لقد أجبر الفلسطينيون تحت تهديد السلاح الموجه إلى صدورهم على مغادرة مزارعهم وأراضيهم .

كان هناك عدة آلاف من العائلات الفلسطينية التي تروي قصصًا مأساوية عما جرى .

يقول الشكعة : ولكن من يستمع إليهم ؟ لا أحد يهتم بذلك في الغرب فقد تقبلوا الأكاذيب الغبية التي راجت بينهم وتقبلتها ضمائرهم لأن هذا قد بدا لهم الطريق السهل .

وبعد سنوات حين بدأت الحقائق تظهر في الغرب لم يتقدم أحد بأي اعتذار ينم عن خجلهم من الأكاذيب والبهتان الذى انتشر بينهم .

ورغم ذلك فلقد كانت هذه نقطة تحول فاصلة في إدراكهم لحقيقة أن

الفلسطينيين كانوا أكبر ضحايا للظلم في تاريخ البشرية . ولقد أدرك الفلسطينيون أنفسهم عدم صدق القصة الشائعة والتي تكررت كثيرا بأنهم تركوا وطنهم عقب أوامر صدرت إليهم من القادة والزعماء العرب تأمرهم بالرحيل .

وفي عام ١٩٥٩ نشر المفكر الفلسطيني الأستاذ وليد الخالدى بحثًا مجتهدًا أثبت فيه أن القادة العرب في نداءا تهم الموجهة بالإذاعة إلى الفلسطينيين لم يطالبوهم بالرحيل . بل بالبقاء والتمسك بالأرض .

عام ١٩٦١ نشر الصحفي البريطاني أرسكين تشيلدرز القصة كاملة في مجلة سبكتاتور الإنجليزية . ومنذ ذلك الحين أدرك الكثيرون في الغرب أن الفلسطينيين لم يتركوا أرضهم طواعية ولكنهم طردوا منها بشتى أساليب العنف والقسوة .

ولعدة سنوات قريبة نسبيًا ظل الصهاينة يتكتمون ما جرى من تدمير كامل لـ ٣٨٥ قرية فلسطينية بعد ترحل سكانها العرب .

ويقول بسام الشكعة : إنها مسألة وقت فقط لتظهر الأيام المزيد من الحقائق المرعبة عن وقائع أخرى للاغتصاب الصهيوني ـ لأنه كما يعتقد ـ لا يستطيع أحد إخفاء الحقيقة إلى الأبد .

وفي كثير من الأحيان يبدى بسام الشكعة إحساسه بالدهشة إزاء بعض الوقاحات في المزاعم الصهيونية . ومن أمثلة ذلك الادعاء الذى يتردد كثيرا بأن الصهاينة لم يكن في نيتهم طرد الفلسطينيين .

ومع ذلك فقد نوقش هذا الموضوع في « باولا زيون » : مؤتمر العمل الصهيوني بزيورخ عام ١٩٣٧ في سويسرا عندما قرر دافين بن جوريون وجولدا مائير ـ كلاهما صار رئيسا للوزراء فيما بعد ـ قررا ومعهما زعماء آخرون للحركة الصهيونية ـ طرد الفلسطينيين ـ إلى الأقطار العربية المجاورة .

قال دافيد بن جوريون شارحًا سياسة الترانسفير « الترحيل » : لدينا خطة لطرد السكان العرب وترحيلهم خارج فلسطين أما برغبتهم إذا أمكن ذلك وإما بالقسر والإجبار إذا تطلب الأمر لتوسيع الاستيطان اليهودي .

وأضاف بن جوريون : إنه لا ينظر إلى التقسيم باعتباره الحل النهائي للمشكلة . فهذا الوطن لم يعطي لنا كي نقسمه .فهو يمثل وحدة واحدة ليس فقط تاريخيًا ولكن من الناحية الطبيعية والاقتصادية .

لعل هذا هو الموقف الصهيوني المعلن والثابت خلال عام ١٩٣٧ حتى الوقت الراهن وهو ما أكدته الأحداث في المراحل التالية .

في الواقع كشف كثير من القادة الإسرائيليين حقائق جديدة كانوا قد أنكروا وقوعها قبل ذلك بشكل عنيف .

وفي سيرته الذاتية التي خضعت للرقابة في إسرائيل وفي دول الغرب ولكن تم نشرها في صحيفة نيويورك تايمز قام رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إسحق رابين ومعه بن جوريون وايجال آلون الذى شغل منصب وزير الخارجية ـ قاموا بمناقشة مصير ٥٠ ألف فلسطيني يعيشون في اللد والرملة أشار بن جوريون بيده في إيماءة قائلا : اطردوهم خارج البلاد .

وتشاورنا .. آلون وأنا .. وكنا متفقين على شيء أساسي : ضرورة طرد السكان ولم يكن هناك وسيلة أخرى سوى إطلاق الرصاص عليهم وإجبارهم على الرحيل بالقوة .

ولهذا ليس مما يدعو للدهشة أن بسام الشكعة خلال السنوات طفولته الأولى عاش في قلق وإحساس بالتوتر وكلما نما إدراكه ونضج زادت معرفته بما يحدث لشعبة ولوطنه .

ويشرح الموقف قائلا : الأمر أشبه بأن لديك جارًا جديدًا يتحرك في اتجاه واحد . أنت تبدى ناحيته مشاعر المودة والترحيب . لكن القادم الجديد يبدى ناحيتك مشاعر عدائية .قاسية . جافة . لماذا ؟

فجأة سوف تبدو لك حقيقة قاسية وهي أن جارك لا يشاركك فقط في الملكية لبيتك ـ ولكن هو يريد البيت كله وأنت تعيش خارجه .

الأمر كله يخلو من المنطق ولا يحكمه العقل وأنت لا تملك السلاح للدفاع عن نفسك ولا تستطيع أن تخاطب فيه الطبيعة الخيرة – لأنها لا توجد بداخله – وإذا حاولت أن تدافع عن حريتك وحياتك وملكيتك فسوف يقولون أنك عدواني . وربما يصفونك بأنك إرهابي .

ظلت معاناة الشعب الفلسطيني مستمرة حتى عام ١٩٤٨ ـ وما بعدها . وكما تروى صحيفة يديعوت أحرونوت عن القائد الصهيوني ياشياهو بن بورات في ٨ سبتمبر ١٩٧٢ الذى قال أنه وصل إلى إسرائيل سنه ١٩٤٥ وأنتمي إلى حركة الشباب الصهيوني .

وحين كان في السابعة من عمره ـ كما يقول تلقى تدريبا عسكريا بهدف القتال في فلسطين . « حين كنت صبيا في النمسا كان قد تولد لدى إحساس أنه سيأتي اليوم الذى نحتاج فيه إلى استخدام السلاح لإخضاع الفلسطينيين وتم تدريبي على كيفية طرد السكان العرب .

ونمت بداخلي فكرة أن أرض إسرائيل هي أرضنا وأن سكانها العرب الذين يعيشون عليها سوف يكون لهم الخيار أن يعيشوا عليها بشرط ألا يضايقوننا أو يسببوا لنا المتاعب . وإذا حدث ذلك سوف نطردهم . لم نتلقى تدريبا على كيفية احترام جيراننا العرب . في التفكير الضمني وأحيانًا الصريح : إنهم سوف يذهبون

.. ونحن سوف نبقى .

ومنذ سنوات عمره المبكرة إدراك بسام الشكعة حقيقة الموقف الذى تمثل في أن وطنه سوف يحتله هؤلاء الأجانب الذين جاءوا إليه تاركين أوطانهم الأصلية وقد تدربوا كما أشار إلى ذلك بن بورات على غزو واحتلال أوطان شعب آخر .

يقول بسام الشكعة : ماذا كان بوسعنا أن نفعل ؟ لقد كنا بلا قوة . كان الأمر أشبه ببعض المآسي الإغريقية المحتومة والمقدرة على البشر . وكانت النتيجة الوحيدة لذلك هو قيام دولة إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨ التي سرعان ما توسعت في حدودها الإقليمية التي حددها قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٤٧ .

ومنذ صدرت توصية الأمم المتحدة .. قام الصهاينة بالهجوم احتلال أراضي فلسطينية كانت ضمن حدود الدولة العربية .

وحين دخلت الجيوش العربية لمنع الاحتلال الصهيوني للأراضي الفلسطينية قامت الدعاية الصهيونية بتصوير الموقف على أنه غزو تقوم به الجيوش العربية للدولة الوليدة ومحاولة لإفناء وإبادة اليهود .

وظلت محاولات الفلسطينيين لاستعادة حقوقهم وكذا كافة ردود الفعل العربية العادلة إزاء الهجمات الإسرائيلية على المناطق العربية من فلسطين . ظلت هذه المحاولات تفسر على أنها محاولات لسحق وإبادة اليهود .

وظلت أي مطبوعات تنشر في صحافة أوربا الغربية عند مناقشة القضية الفلسطينية تشير إلى محرقة «الهولوكست» وتدعى أن اليهود في إسرائيل مهددون بالإبادة الجماعية رغم أن في الحقيقة أن المهددين بهذه الإبادة الجماعية هم الفلسطينيون العرب .

يروى دكتور ناحوم جولدمان الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي في مايو ١٩٧٠ بجريدة لوموند : نحن لم نفشل فقط في فهم الشخصية العربية .. لكننا أنكرنا مسئوليتنا عما اعتبروه هم ظلمًا جائرًا حاق بهم .

لقد اعتبروا أننا انتزعنا منهم وطنًا كانوا هم الأغلبية فيه لعدة قرون . وحقيقة أنهم لم يحكموا هذا الوطن مسألة ثانوية . هناك شعوب أخرى حققت استقلالها في العصر الحديث رغم أنها كانت واقعة تحت السيطرة الأجنبية .

من المهم هنا ملاحظة تعبير : نحن الذى استخدمه د. جولد مان ـ كمواطن أمريكي.

تضيف : لقد حاولنا أن نفرض عليهم تصوراتنا . وحاولنا نحقق أهدافنا بالقوة العسكرية وبتدخل القوى الأجنبية لصالحنا .

◆◆◆